مؤتمر ظاهرة التكفير .. الأسباب .. الآثار .. العلاج

المحور ٣- البحث ١٠

الجهل والهوى سببان رئيسان لظاهرة التكفير خطورتهما وصلتهما بالتكفير

د. عبدالله البخاري

أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة ابن زهر، أكادير، المغرب

قال ابن تيمية رحمه الله:"فصلاح بني آدم: الإيمان والعمل الصالح، ولا يخرجهم عن ذلك إلا شيئان:

- أحدهما: الجهل المضاد للعلم فيكونون ضلالاً.
- والثاني: اتباع الهوى والشهوة الذين في النفس".

مجموع فتاوى ابن تيمية ج: ١٥/ ٢٤٢ – ٢٤٤.

المقدمـــة:

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من نبي بعده، وبعد:

فإن ظاهرة التكفير تعد أخطر ظاهرة على الساحة الإسلامية قديماً وحديثاً، وهي من الفتن التي ابتليت بها الأمة، فخطرها عظيم، وضررها جسيم، إنْ على الأفراد أو المجتمعات، من أجل ذلك حذر النبي ﷺ من رمي الناس بالنفاق أو الكفر، سواء صدر منا ذلك عن قصد أو عن غير قصد، فعندما قال صحابي جليل في حق صحابي آخر: "إنه نافق"، قال رسول الله ﷺ:"إنه شهد بدراً"[(١)]، وقال:"أيما رجل قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما"[(٢)]، وأخبر بأن أهل التكفير سيخرجون وأمر بقتلهم، وتحدث ﷺ عن أوصافهم من حيث أخلاقهم وأعمارهم ومستواهم العلمي، فقال عنهم:"سفهاء الأحلام" يعني: خفة وطيش وعدم تثبت، "حدثاء الأسنان" يعني: صغار في السن والعلم، "لا يجاوز القران تراقيهم"؛ لأنهم لم يأخذوا العلم عن أهله، ولا يملكون آلة الفهم لنصوص الكتاب والسنة، "يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية"[(٣)]؛ وذلك بسبب جهلهم المركب، فهم يجهلون أصول الدين

(١) البخاري: كتاب التفسير، سورة الممتحنة، ح رقم: ٤٨٩٠، وكتاب الأدب باب: ٧٤.

(٢) البخاري: كتاب الأدب، باب من أكفر أخاه بغير تأويل، فهو كما قال، ح رقم: ٦١٠٤.

(٣) البخاري: كتاب فضائل القران٦٦، باب ٣٦. ح رقم: ٥٠٥٧، وكتاب استتابة المرتدين ٨٨. باب ٦ وباب ٧..

ولا يدركون أنهم يجهلون، وبسبب ذلك لا يتعلمون، ولا يرون أنهم في حاجة إلى تعلم، فجهلهم عندهم علم، وعلم غيرهم عندهم جهل، رأيهم صواب لا يحتمل الخطأ، ورأي غيرهم خطأ لا يحتمل الصواب، لا يعترفون لغيرهم بعلم ولا فضل، بل يكفرون كل من ليس على شاكلتهم، ويستحلون الدماء والأعراض والأموال، ويقتلون الأبرياء من الشيوخ والنساء والأطفال، وما دروا أن الغلط في إدخال كافر في الملة، أو إخراج رجل منها أمر عظيم في الدين، وأن الخطأ في إدخال ألف رجل في الإسلام أهون عند الله من إخراج رجل واحد من الإسلام، كما نص على ذلك القاضي عياض رحمه الله[1]، ومع الأسف الشديد ابتليت الأمة الإسلامية في العقود المتأخرة بشباب متحمسين يريدون الخير لأمتهم – زعموا – لكنهم أخطأوا الطريق اللاحب[2] الذي سلكه علماء الأمة ومجتهدوها، وسلكوا طريقاً خطه أناس لا علاقة لهم بالعلم والعلماء، وإن كانت خطبهم تهز المنابر، وبسبب عوامل كثيرة داخلية وخارجية انتشر بينهم فكر التكفير والتجهيل والتفسيق لكل من ليس معهم حكاماً ومحكومين، علماء ومتعلمين، ولأنهم يجتهدون الليل والنهار لا يفترون، وفي مقابل ذلك جل علماء الأمة في غفلة عنهم غير آبهين، حتى استفحل أمرهم وازداد خطرهم على الإسلام والمسلمين.

ولعل هذا المؤتمر بهذا الموضوع الذي طرحه يقوم ببعض الواجب في علاج هذه الظاهرة الخطيرة التي شوهت جمال الإسلام ومحاسنه، لأن أبرز ما فيها سفك الدماء وقتل الأبرياء، وتشتيت الأوصال والأشلاء، وقتل الأطفال والشيوخ والنساء، والاعتداء على الأنفس والأموال والممتلكات، كل ذلك يحدث تحت مصطلح شرعي نظيف اسمه: الجهاد، فبدل أن يجاهدوا أنفسهم

(١) الشفا ٢/ ٢٧٧.

(٢) اللاحب واللحب والملحب: الطريق الواضح. القاموس مادة (لَحَبَ).

أولاً بتعلم العلم والصبر عليه وتعليمه للغير ذهبوا يعبثون مع العابثين حتى شوهوا ما جعله الله ذروة سنام الإسلام.

ولأهمية هذا المؤتمر أحببت أن أشارك فيه ببحث أرجو الله أن ينفع به شباب المسلمين، وتظهر أهمية هذا البحث في كونه يبحث في الأسباب التي تؤدي إلى انتشار ظاهرة التكفير، وعلاج الظواهر المرضية إنما يكون بمعرفة أسبابها، ومن ثم اقتلاعها واجتثاثها من أصولها، وعلماء الأمة قديماً وحديثاً درسوا أسباب وجود هذه الظاهرة، وتوصلوا إلى أنها ترجع إلى أسباب كثيرة من أهمها: الجهل، والهوى، فكان البحث بعنوان:

الجهل والهوى سببان رئيسان لظاهرة التكفير

خطورتهما وصلتهما بالتكفير[1]

وجعلته في مقدمة وفصلين وخاتمة.

تحدثت في المقدمة على ظاهرة التكفير وخطرها، وأهمية المؤتمر وموضوعه ثم أهمية البحث الذي سأشارك به.

الفصل الأول: الجهل وأثره في ظاهرة التكفير، وفيه مباحث:

الأول: تعريف الجهل.

الثاني: حاجة البشرية إلى العلم النافع.

الثالث: الجهل أصل كل فساد على وجه الأرض.

الرابع: خطورة الجهل بآداب طلب العلم.

الخامس: من أسباب الجهل بآداب طلب العلم.

(١) كان العنوان في الأصل "الأسباب الفكرية المؤدية لظاهرة التكفير، وكان يشتمل على أربعة أسباب: الجهل والهوى والتأويل الخاطئ ومخالطة الجماعات المنحرفة، وقد اقتصرت على الأولين نظراً لأهميتهما وإمكانية دخول الأخيرين فيهما، وكذلك تجنباً للإطالة، فإن عدد الصفحات محصور في الأربعين، وقد أوشكت على إتمامها.

السادس: خطورة الابتعاد عن العلماء.

السابع: أثر الجهل في ظاهرة التكفير.

الثامن: العلاج.

الفصل الثاني: الهوى وأثره في ظاهرة التكفير، وفيه مباحث:

الأول: تعريف الهوى.

الثاني: خطر الهوى على الانسان قد يصل إلى منعه من التوبة.

الثالث: تحذير النبي ﷺ من الهوى.

الرابع: تحذير السلف من الهوى

الخامس: أثر الهوى في ظاهرة التكفير

السادس: كيف نسلم من اتباع الأهواء؟

السابع: علاج اتباع الهوى.

الخاتمة: وفيها النتائج والتوصيات.

الفصل الاول
الجهل وأثره في ظاهرة التكفير التكفير

المبحث الأول
تعريف الجهل

الجهل: قال في اللسان:"الجهل نقيض العلم"[1].

وفي المفردات للراغب:"الجهل على ثلاثة أضرب:

الأول: وهو خلو النفس من العلم، وهو معنى مقتضياً للأفعال الجارية على غير نظام.

والثاني: اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه.

والثالث: فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل سواء اعتقد فيه اعتقاداً صحيحاً أو فاسداً"[2].

ونقل الزبيدي عن الحرالي أن "الجهل هو التقدم في الأمور المبهمة بغير علم"[3].

والجهل على قسمين: بسيط، ومركب.

فالبسيط: عدم العلم بما من شأنه أن يعلم، والمركب: اعتقاد جازم غير مطابق للواقع، وسمي مركباً لأن صاحبه جاهل، ولا يدري أنه جاهل، ويعالج الأول بملازمة العلماء ليظهر له نقصه عند محاوراتهم[4].

(١) اللسان (١٢٩/١١) مادة: جهل.

(٢) المفردات ص ١٠٢.

(٣) تاج العروس (١٢٩/١٤).

(٤) الكليات ص ٣٥٠، وتاج العروس (١٣٠/١٤).

أما الثاني فإن علاجه من الصعوبة بمكان، فإن قيل: كيف يكون العلاج؟ فإنه يكون بملازمة الرياضات لعله يطعم لذة اليقين، ثم ينبه شيئاً فشيئاً بالتدرج حتى يقتنع بأنه جاهل فيلازم العلماء، فهو كالمريض الذي لا يقتنع بأنه مريض، فإنه لا يستعمل الدواء المجرب وإن كان بالمجان.

من خلال هذه التعاريف يتضح لنا أن الجهل ضد العلم، وأن نفس الجاهل خالية من نور العلم، وأن أفعاله وأقواله تجري على غير نظام، بسبب فساد في إدراكه، يعتقد الأمور بخلاف ما هي عليه، ثم يقول ويفعل بخلاف الحق والصواب.

وأن الجاهل يقدم على الأمور المبهمة بغير علم، ثم إن جهل الجاهل منه ما هو قابل للعلاج، وهو الجهل البسيط، ومنه ما لا يقبل العلاج، وهو الجهل المركب من أمرين: جهل بالأشياء وجهل بأنه جاهل بها، ومن هنا كان الجهل أخطر داء أصيبت به الأمة الإسلامية.

المبحث الثاني
حاجة البشرية إلى العلم النافع

إذا كان الجهل نقيض العلم، فإن معنى ذلك أنهما لا يجتمعان، فالأمر دائر بين الحق والباطل، فإما أن يجيء الحق، وإلا فالباطل جاثم على الإنسان، قال تعالى: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾[1]، فإما أن يوجد العلم بالتعلم، وإلا فالأصل أن الإنسان جاهل بحدود الله حتى يعلمه الله، ولم يستثن من ذلك أحد حتى الأنبياء، قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[2].

وأول اية نزلت على إمام الأنبياء ﷺ قوله تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[3].

وقال تعالى مخاطباً لنبيه ﷺ أيضاً: ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾[5]، وأخبرنا الله عز وجل بأنه علم آدم، فقال: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾[6]، وحتى الملائكة قالوا: ﴿ سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا

(١) الإسراء ٨١.
(٢) النحل ٧٨.
(٣) العلق الآية: ١–٥.
(٤) الشورى الآية ٤٩.
(٥) النساء الآية ١١٢.
(٦) البقرة الآية ٣٠.

عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾[1]، والعرب الذين كانوا يعيشون في جاهلية جهلاء بعث الله فيهم رسولاً من أنفسهم لكي يعلمهم ما ينفعهم، قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾[2].

إذن فالإنسان جاهل ظلوم حتى يعلمه الله ويطهره، قال تعالى مخبراً عن حقيقة هذا الإنسان الجاهل بحقائق الأشياء وقيمتها، ومن ذلك الأمانة: ﴿ وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾[3].

وبما أن العلم والجهل نقيضان، فإن الله سبحانه وتعالى بين لنا قيمة العلم والعلماء، فأخبرنا بأنهما لا يستويان، فقال: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾[4]، وأخبرنا بأن درجة العلماء من المؤمنين أعلى من درجة غير العلماء منهم، فقال: ﴿ يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾[5]، وأخبرنا بأن الجاهل بمنزلة الأعمى، فقال: ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾[6].

ومن خلال هذه الآيات القرانية نعلم حاجة العباد إلى العلم، وأنها تفوق حاجتهم إلى الطعام والشراب، قال ابن القيم رحمه الله: "إن حاجة العباد إلى العلم ضرورية فوق حاجة الجسم إلى الغذاء؛ لأن الجسم يحتاج إلى الغذاء مرة أو مرتين، وحاجة الإنسان إلى العلم بعدد الأنفاس"، قال الإمام أحمد: الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب؛ لأن الرجل يحتاج إليه في اليوم مرة

(١) البقرة الآية ٣١.
(٢) الجمعة الآية: ٢.
(٣) الأحزاب الآية ٧٢.
(٤) الزمر الآية ١٠.
(٥) المجادلة الآية ١١.
(٦) الرعد الآية ١٩.

أو مرتين، والعلم يحتاج إليه في كل وقت"[1].

ومن هنا كان صاحب العلم أقل تعباً وعملاً، وأكثر أجراً؛ لأن العلم يعرف مقادير الأعمال ومراتبها، وفاضلها من مفضولها، وراجحها من مرجوحها، فصاحب العلم لا يختار لنفسه إلا أفضل الأعمال[2]، قال علي رضي الله عنه: "العلم نكتة يسيرة كثرها أهل الجهل"[3]، والعامل بلا علم كالسائر بلا دليل، قال ابن تيمية رحمه الله:"من فارق الدليل ضل السبيل، ولا دليل إلا بما جاء به الرسول"[4].

وقال الحسن البصري رحمه الله: "العامل على غير علم يفسد أكثر مما يصلح، فاطلبوا العلم طلباً لا تضروا بالعبادة، واطلبوا العبادة طلباً لا تضروا بالعلم، فإن قوماً طلبوا وتركوا العلم حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد ﷺ، ولو طلبوا العلم لم يدلهم على ما فعلوا"[5].

ما أعظمه من كلام صدر عن هذا الإمام الذي كان يشبه كلامه كلام الأنبياء، كما قال فيه جعفر الصادق رحمه الله، لكن أين من يقرأ أو يعقل ويتعظ، فالذي يجب على الأمة أن تدركه هو أن العلم قائد وحاكم، ومهما عكسنا هذه القاعدة، وأخضعنا العلم إلى أهوائنا وجهلنا، فإننا سنبوء بالخسران، والله المستعان.

قال ابن القيم رحمه الله: "إن العلم حاكم على ما سواه، ولا يحكم عليه شيء، فكل شيء اختلف في وجوده وعدمه، وصحته وفساده، ومنفعته ومضرته، ... إلى سائر جهات المعلومات، فإن العلم حاكم على ذلك كله، فإذا

(١) مفتاح دار السعادة ٦١، العلم وفضله: ٩٠-٩١.
(٢) مفتاح دار السعادة ٨١، العلم وفضله: ٩٠-٩١.
(٣) إيثار الحق على الخلق ص١٦.
(٤) مفتاح دار السعادة ٨٣، العلم وفضله: ص ٩٤.
(٥) مفتاح دار السعادة ٨٣، العلم وفضله ص ٩٤.

حكم العلم انقطع النزاع، ووجب الاتباع، وهو الحاكم على المماليك والسياسات والأموال والأقلام، فملك لا يتأيد بعلم لا يقوم، وسيف بلا علم مخراق لاعب، وقلم بلا علم حركة عابث، والعلم مسلط حاكم على ذلك كله، ولا يحكم شيء من ذلك على العلم"[1].

وعلى العموم فإن كل صفة مدح الله بها العبد في القران فهي ثمرة العلم ونتيجته، وكل ذم ذمَّه فهو ثمرة الجهل ونتيجته، فكل الأخلاق المحمودة والأفعال المرضية هي ثمرة شجرة العلم.

(١) مفتاح دار السعادة ٨٠، العلم وفضله ص ٨٦.

المبحث الثالث
الجهل أصل كل فساد على وجه الأرض

قال تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ﴾[1]، ومن جهل شيئاً عاداه.

إن المتتبع لمجريات الأمور والخبير بشؤون حياة الناس يدرك جيداً أن المصائب والويلات والكوارث والتبعات التي لحقت وتلحق بالأمة الإسلامية كانت كلها بسبب عدم معرفتنا بقيمة العلم والعلماء، وبسبب عدم احتكامنا إلى العلم الحاكم المستمد من الكتاب والسنة، ولو أننا رجعنا إلى العلم وجعلناه حكماً بيننا وأبعدنا عن ساحتنا الجهل والجاهلين لاستقامت الأمور.

قال ابن القيم: "ولا ريب أن الجهل أصل كل فساد، وكل ضرر يلحق العبد في دنياه واخراه فهو نتيجة الجهل"[2].

فالجهل يثمر كل ثمرة قبيحة من الكفر والفساد والشرك والظلم والبغي والعدوان والجزع والهلع والكنود والعجلة والطيش والحدة والفحش والبذاء والشح والبخل، وبالجملة فالشر بمجموعه شوك يجتنى من شجرة الجهل.

وقد ذم الله الجهل وأهله في مواضع كثيرة من القران الكريم منوعاً في أسباب وصفهم بالجهل، فتارة يذكر عنادهم وإصرارهم على الكفر وأنهم لا يؤمنون أبداً مهما أظهر الله لهم من حجج وبراهين ومعجزات حتى لو نزلت عليهم الملائكة وكلمهم الموتى، قال تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾[3]، وتارة يذكر أن جهلهم دعاهم إلى طلب أمور من الأنبياء تخالف الشرع

(١) يونس الآية ٣٩.
(٢) مفتاح دار السعادة ٨٧، العلم وفضله ص ١٠١.
(٣) الأنعام الآية ١١١.

والإيمان، قال تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام: ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ ﴾[1]. وعن إبراهيم عليه السلام قال: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾[2]، وقال عن موسى عليه السلام: ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾[3].

قال ابن القيم: " وأصل الشرك والكفر هو القول على الله بلا علم "[4].

ومن أجل ذلك حرم الله علينا القول على الله بلا علم، بل جعله من حيث ترتيب المحرمات فوق الشرك بالله، فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾[5].

(١) هود الآية ٢٩.
(٢) الزمر الآية ٦٤.
(٣) الأعراف الآية ١٣٨.
(٤) مدارج السالكين (١/٣٧٣).
(٥) الأعراف الآية: ٣٣.

المبحث الرابع
خطورة الجهل بأصول آداب طلب العلم

إذا كان القول على الله بغير علم هو الجهل بذاته، فإنه ينبغي أن نبين مخاطر الجهل ببعض الأصول والمسائل التي جهلها كثير من المسلمين، وخاصة الشباب منهم حتى حصل لهم ما حصل، وذلك لأن هذه المسائل تتشكل منها شخصية طالب العلم، ويتحصن بسببها من الانحرافات والانزلاقات والتسممات التي يتشربها نظراً لعدم استعماله للحمية التي تحصنه من الأمراض المعدية كأمراض الشهوات والشبهات والأهواء والتبديع والتكفير واحتقار العلماء الذين ليسوا معه على منهجه.

ومن هذه الأصول التي ورثها الخلف عن السلف، وورثها السلف عن رسول الله ﷺ، أدب طلب العلم والتعلم، التي تتجلى في آداب الطالب في نفسه، وما ينبغي أن يتحلى به، وما ينبغي أن يحذره، وهذا أصل عظيم إذا جهله الإنسان جهل ما بني عليه، وربما انحرف من بداية الطريق بسبب جهله بهذا الأساس.

وبمعرفتنا لهذا الأصل نعرف قدر العلم والعلماء، إذ نتعلم أن العلماء ورثة الأنبياء كما في قوله ﷺ: "وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر"[1].

ومن خلال تعلمنا آداب الصحابة مع رسول الله ﷺ عندما وُصفوا بأنهم كانوا يكونون معه في مجلسه كأنما على رؤوسهم الطير، وما يستطيع أحد أن يحد ببصره نحوه تعظيماً وإجلالاً واحتراماً لجنابه الشريف، نتعلم احترام

(١) أبو داوود برقم: ٣٦٤١ و٣٦٤٢، والترمذي (٢٦٨٣) وأحمد (١٩٦/٥) وراجع الفتح ١٦٠/١ كتاب ٣ باب ١٠ من صحيح البخاري، وهو في صحيح أبي داود برقم: ٣٠٩٦.

العلماء وتعظيم قدرهم من خلال وصية الرسول ﷺ بهم كما في قوله ﷺ: " ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا ويأمر بالمعروف وينهى عنة المنكر، ويعرف لعالمنا حقه "[1].

وقوله: "إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القران غير الغالي فيه ولا الجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط"[2]، وقال طاووس: "من السنة أن يوقر أربعة: العالم، وذو الشيبة، والسلطان، والوالد"[3]، وقصة عبد الله بن عباس رضي الله عنه مع العلماء مشهورة عندما كان يبلغه الحديث عند أحدهم فيأتي الباب ويتوسد رداءه حتى يخرج العالم، ولا يطرق عليه الباب مخافة إزعاجه[4].

وعندما انصرف الناس عن قراءة مثل هذه الأحاديث الواردة في شأن العلماء ترتب على ذلك الجهل بمكانة العلماء ومنزلتهم ومقامهم؛ مع أن الشريعة الإسلامية جعلت لهم اعتباراً شرعياً يطاعون من خلاله، وجعلت طاعتهم من طاعة الله، وإن كانت طاعتهم ليست مقصودة لذاتها، وإنما هي تبع لطاعة الله ورسوله، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾[5]، وقال ابن القيم رحمه الله: "والتحقيق أن الأمراء إنما يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم، فطاعتهم تبع لطاعة العلماء، فإن الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم، فكما أن طاعة العلماء تبع لطاعة الرسول، فطاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء"[6]. ولما جهل الشباب

(١) أحمد (٢٥٧/١). الترمذي رقم ١٩٢٠ وهو في صحيحه برقم: ١٥٦٥.
(٢) أبو داوود رقم: ٤٨٤٣. برقم: ٤٠٥٣.
(٣) شرح السنة للبغوي (١٣/ ٤٣).
(٤) جامع بيان العلم وفضله (٨٦/١).
(٥) النساء الآية ٥٩.
(٦) أعلام الموقعين (١٠/١).

وقبلهم الشيوخ والكهول هذه المكانة الرفيعة التي أعطاها الله للعلماء، وهي إقامتهم مقام الأنبياء في التبليغ، إذ: "الوارث قائم مقام الموروث، فله حكمه فيما قام مقامه فيه"(١)، ويلزم من كونه وارثاً قيامه مقام موروثه في البيان"(٢)، خسروا بسبب ذلك بركة العلم النافع.

وقال ابن القيم رحمه الله في معنى "إن العلماء ورثة الأنبياء": هذا من أعظم المناقب لأهل العلم، فإن الأنبياء خير خلق الله فورثتهم خير الخلق بعدهم، ... وفيه إرشاد وأمر للأمة بطاعتهم واحترامهم وتعزيزهم وتوفيرهم وإجلالهم، فإنهم ورثة من هذه بعض حقوقهم على الأمة وخلفاؤهم فيهم، وفيه تنبيه على أن محبتهم من الدين وبغضهم مناف للدين كما هو ثابت لموروثهم، وكذلك معاداتهم ومحاربتهم معاداة ومحاربة لله كما هو في موروثهم، قال علي كرم الله وجهه ورضي عنه:"محبة العلماء دين يدان الله به"(٣)، وقال ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل:"من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة"(٤)، وورثة الأنبياء سادات أولياء لله عز وجل"(٥).

لما جهل الناس مقام العلماء بسبب شبهات كان السبب فيها ما يصدر من بعض المنتسبين إلى العلم، وليسوا من أهله، أو بسبب أخطاء صدرت من بعض العلماء عممها البعض على الجميع، مع العلم أن القاعدة القرآنية "ولا تزر وازرة وزر أخرى"(٦)، حاكمة في الموضوع، وهذا البعض الذي كان سبباً في عدم احترام العلماء ينشد في حقه قول الشاعر:

(١) فتح الباري ١/١٦٠.
(٢) الموافقات ٣/١٨٦ –١٨٧.
(٣) مفتاح دار السعادة ص٦٦.
(٤) البخاري رقم: ٦٥٠٢.
(٥) مفتاح دار السعادة ١/٦٦.
(٦) الإسراء الآية ١٥.

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم... ولو عظموه في النفوس لعُظما.

فالجهل بمثل هذه القواعد والأصول كان سبباً في فقد الثقة في العلماء، وترتب على ذلك التسرع في الاعتراض عليهم، وربما تجهيلهم، وسحب صفة العالم منهم، قال الإمام الشاطبي رحمه الله:"إن العالم المعلوم بالأمانة والصدق والجري على سنن أهل الفضل والدين والورع إذا سئل عن نازلة فأجاب، أو عرضت له حالة يبعد العهد بمثلها، أولا تقع من فهم السامع موقعها أن لا يواجه بالاعتقاد والنقد"[1].

ومن الأصول التي يجهلها كثير من الناس وخاصة الشباب منهم عدم التفريق بين العالم ومن يشبه العالم والطريقة التي يطلب بها العلم، والسبب أنهم لم يأتوا البيوت من أبوابها، فأخذوا العلم عن غير أهله، إما ظناً منهم أنهم من العلماء وهم ليسوا كذلك، وإما عن كتب وأشرطة وأنترنيت، مع أن النبي ﷺ حذر من سلوك مثل هذه الطرق في طلب العلم، فقال: "يقرؤون القران لا يجاوز حناجرهم"، وفي رواية: "سيخرج قوم في آخر الزمان أحداث الأسنان سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية لا يجاوز إيمانهم حناجرهم"[2]، ومعنى ذلك أنهم يقرؤونه بدون تفقه، وقال: "سيأتي زمان يكثر فيه القراء، ويقل فيه الفقهاء، ويقبض العلم ويكثر الهرْج"[3]، وحذر من هذا أيضاً أهل العلم في كتبهم، ونبهوا على خطورة هذا المسلك في طلب العلم.

قال الخطيب البغدادي رحمه الله: "قد رأيت خلقاً من أهل هذا الزمان ينتسبون إلى الحديث، ويعدون أنفسهم من أهله... وهم أبعد الناس مما

(١) الموافقات ٤/٢٠٧.

(٢) البخاري (رقم ٦٩٣٠ و ٦٩٣١).

(٣) الحاكم في المستدرك ٤/٤٥٧. وصححه ووافقه الذهبي، والهرج: القتل كما فسره بذلك النبي ﷺ في صحيح البخاري برقم: ٦٠٧٣، أو الفتنة كما في الصحاح مادة: هرج.

يدعون، وأقلهم معرفة بما إليه ينتسبون... وهم مع قلة كتبهم له، وعدم معرفتهم به أعظم الناس كبراً، وأشد الخلق تيهاً وعجباً لا يراعون لشيخ حرمة، ولا يوجبون لطالب ذمة"[1].

وقال الذهبي رحمه الله: "قوم انتصبوا إلى العلم في الظاهر، ولم يتقنوا منه سوى نزر يسير أوهموا به أنهم علماء فضلاء، ولم يدر في أذهانهم قط أنهم يتقربون به إلى الله؛ لأنهم ما رأوا شيخاً يقتدى به في العلم، فصاروا همجاً رعاعاً، غاية المدرس منهم أن يحصل كتباً مثمنة يخزنها، وينظر فيها يوماً، فيصحف ما يورده، ولا يقرره، فنسأل الله النجاة والعفو"[2].

وقال الإمام الشاطبي رحمه الله: "من أنفع طرق العلم الموصلة إلى غاية التحقق به أخذه عن أهله المتحققين به على الكمال والتمام... وقد قالوا: "إن العلم كان في صدور الرجال، ثم انتقل إلى الكتب وصارت مفاتحه بأيدي الرجال"، وهذا الكلام يقضي بأن لا بد في تحصيله من الرجال، وأصل هذا في الصحيح: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا"[3]، فإذا كان كذلك فالرجال هم مفاتحه بلا شك"[4].

وقد قيل:

من لم يشافه عالماً بأصوله ... يقينه في المشكلات ظنون.

وكان أبو حيان كثيراً ما ينشد:

(١) الجامع في أخلاق الراوي وآداب السامع (١/ ٧٥-٧٧).

(٢) سير أعلام النبلاء ١٥٣/٧.

(٣) البخاري: كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم، رقم: ١٠٠.

(٤) الموافقات ١/ ٥٩-٦٠.

يظن الغمر أن الكتب تهدي ... أخا فهم لإدراك العلوم
وما يدري الغمر بأن فيها ... غوامض حيرت عقل الفهيم
إذا رمت العلوم بغير شيخ ... ضللت عن الصراط المستقيم
وتلتبس الأمور عليك حتى ... تصير أضل من توما الحكيم
مصحف حبة سوداء ياءً ... قد أردى الناس بالفهم السقيم[1]

وقال أبو عمرو الداني رحمه الله في أرجوزته محذراً ممن لا يؤخذ عنه العلم:

والعلم لا تأخذه عن صُحْفي ... ولا حروف الذكر عن كتبي
ولا عن الجهول والكذاب ... ولا عن البدعي والمرتاب
وارفض شيوخ الجهل والغباوة ... لا تاخذن عنهم التلاوة
لأنهم بالجهل قد يأتون ... بغير ما يُروى ولا يدرونا[2]

وقال في احترام الشيخ وإجلاله وتوقيره:

فالتزم الإجلال والتوقيرا ... لمن يريك العلم مستنيراً
وكن له مبجلاً معظماً ... مرفعاً لقدره مكرماً
واخفض له الصوت ولا تجهره ... وما جنى عليك فاغتفره
فحقه من أوكد الحقوق ... وهجره من أعظم العقوق[3]

(١) شرح حلية طالب العلم للشيخ العثمين ص٧٤.
(٢) منبهة الإمام الداني ج ٢/ ٥٣٣.
(٣) منبهة الإمام الداني ج ٢/ ٥٣٢.

هـذه هـي الأخـلاق والآداب الـتي ينبغـي لطـلاب العلـم التزامهـا، وهـذه هـي الآداب الـتي علمهـا رسـول الله ﷺ لأصـحابه، والتزمهـا أصـحابه وعلموهـا للتـابعين، وهكـذا إلى أن وصلت إلينـا، ولم نـر مـن المتمسـكين بهـا إلا الخـير والنفع للأمة، وكل الكوارث والمصائب والبدع بجميع أنواعها التي حدثت في الأمة كانت بسبب الجهل بهذه الآداب التي ترتب عليها سوء الأدب مع العلماء، والتقدم بين أيديهم، ومحاولة تجاوزهم والاعتراض عليهم.

المبحث الخامس
من أسباب الجهل بآداب طلب العلم

والذي جعل الجهل بهذه الآداب ينتشر في عصرنا الحاضر هو أن جل المتحمسين الذين تزعموا بعض الحركات الإسلامية لم يسلكوا طريق الأسلاف من العلماء والأئمة المعتبرين في تعلم الإسلام، بسبب أن جلهم هداه الله إلى الإسلام وهو في العقد الثالث أو الرابع من عمره أو قبل ذلك، فبدأ يقرأ من جديد عن الإسلام دون توجيه من شيخ معتبر، وربما كان طبيباً أو مهندساً لم يسبق له أن درس العربية لغة الإسلام على الطريقة المعهودة، ولا الشريعة وفق أصولها المعروفة، ولا جالس العلماء وزاحمهم بركبه، وهذا النوع من الناس مهما حسن قصده لا بد أن يكون عرضة للأخطاء، وقد يكون بعضها قاتل، فالدين علم يتلقى عن العلماء، ولا ينتفع منه مسلم بالحب والعاطفة والحماسة؛ لأن هذه الأمور إذا لم تنضبط بالشريعة ربما أدت إلى نتائج عكسية أضرت بالإسلام والمسلمين، وما نشاهده في الساحة الإسلامية خير شاهد على ذلك.

المبحث السادس
خطورة الابتعاد عن العلماء أو الابعاد عنهم

بسبب الابتعاد عن العلماء أو الابعاد عنهم جهل كثير من المتحمسين للإسلام أصولاً عظيمة من أصول الدين، وكثيراً من أمهات المسائل التي من جهلها خبط في الإسلام خبط عشواء، وعاش في جاهلية عمياء، ولم يفرق بين نجوم في السماء وأخرى في الماء، ولم يعرف مسائل الأحكام والأسماء، أعني أسماء الدين من مسلم مؤمن، وكافر فاسق، وأحكامهم في الدنيا والآخرة التي تنازع فيها العلماء، وهو أشد نزاع وقع في الأمة الإسلامية على الإطلاق، وبسببه استبيحت الأموال، وهتكت الأعراض، وسفكت الدماء، يحدث هذا بسبب الجهل في قضايا التكفير والتفسيق، وأصول أهل السنة في التعامل مع الحكام، وأصول التعامل مع الصحابة وتابعيهم من علماء الأمة الأعلام، وما دونوه من منهج رصين في تلقي الأخبار ومعرفة صحيحها من سقيمها، وما حذروا منه من عقائد منحرفة أدخلت أو دست في بعض كتب التفسير والتاريخ والعقائد، مما لا يعرفها إلا من صفا مشربه، وأخذ العلم عن أهله الذين بقوا متمسكين بعقيدة أهل السنة والجماعة المأخوذة مما كان عليه النبي ﷺ وصحابته الكرام، ومن تبعهم بإحسان.

إن الجهل بأصول الإسلام الكبيرة هو الذي جعل ذو الخويصرة يعترض على رسول الله ﷺ، وهو الذي سمح بظهور بدعة الرفض والتكفير والاعتزال والقدر، فكل هذه البدع كانت بسبب الجهل بقدر العلماء ومكانتهم التي وضعهم فيها الإسلام، فالرفض ابتدعه الجاهل اليهودي ابن سبأ الذي تجاوز – عن قصد – فهم الصحابة وأتى بأفكار غريبة وبثها بين الجهلة في أطراف الدولة الإسلامية عند أقوام حديثو عهد بالإسلام، لم يتمكن الإيمان من

قلوبهم، والتكفير أحدثه أعراب جهلة لم يعرفوا قدر عالم الأمة بلا منازع في عهده أبي السبطين علي بن أبي طالب الخليفة الراشد المشهود له بالجنة، وبدعة الاعتزال أحدثها واصل بن عطاء الجاهل المتمرد على شيخه إمام الدنيا في عصره الحسن البصري رحمه الله.

وكذلك بدعة القدر التي أحدثها جاهل آخر اسمه معبد الجهني وهو المتطفل على الإمام الحسن البصري أيضاً، وهكذا جميع البدع إلى يومنا هذا لن تجد بدعة إلا وسببها إنسان جاهل ابتعد عن العلماء، واغتر بجهله وتبعه على ذلك جهلة مثله.

ومن لا يعرف أصول الإسلام وقواعده الكبيرة كيف يتحدث باسم الإسلام ويدافع عنه؟.

ومع الأسف فإن هناك شباباً أُخذوا على حين غرة، وتلقفتهم أيد غير أمينة فوضعوا داخل سياج مغلق بإحكام وإتقان باسم التحذير والتنفير من الآخرين مهما كان علمهم وصلاحهم، ثم يوهمونهم بأنهم علماء ومجاهدون، وليسوا في حاجة إلى العلماء الذين ليسوا على منهاجهم، وبهذا يسيطرون على عقولهم سيطرة كاملة، ويقودنهم إلى حيث يريدون، وهذا النوع من الشباب أصبح يعتقد في نفسه المشيخة والإمامة مع احتقاره للعلماء، – لأنه هكذا علم ولقن–، ومن ثم فقد الثقة في العلماء الذين هم ليسوا على شاكلته، وغدا مشكلة عويصة يصعب حلها في الغالب إلا من رحم الله، إذ الحوار لا ينفع مع أمثال هؤلاء، لأن جهلهم مركب من جهلين: جهال ببعض الأمور، ولا يعرفون أنهم جهال، ويزيد في الأمر صعوبة ما يوجد عند كثير منهم من قلة الأدب وسوء الأخلاق والجرأة التي لا نهاية لها عند بعضهم في التعامل مع العلماء وبعض أمور الإسلام والإيمان.

المبحث السابع
أثر الجهل في ظاهرة التكفير

للحديث عن هذه الظاهرة سنكتفي بعرض بعض الأمثلة التي تدل على أثر الجهل في الانحراف العقدي والفكري، والذي يجعل بعض الناس يكفرون الناس ويحاولون قتلهم، أو ينفردون ببعض الآراء الشاذة، أو يلعب بعض شياطين الإنس والجن بعقولهم وأفكارهم، والأمثلة على ذلك كثيرة سأقتصر على بعضها من باب التمثيل لا الحصر.

- **المثال الأول**: قصة الأعرابي الجاهل ذي الخويصرة الذي أعماه جهله عن رؤية الشمس في رابعة النهار، وجهل قدر رسول الله ﷺ، فقال له: يا محمد إعدل، فقال ﷺ: "ويلك: ومن يعدل إذا لم أعدل، قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل"[1].
- **المثال الثاني**: قصة مقتل عثمان رضي الله عنه[2]، إذ نحن نجزم أن الخوارج الذين ألبهم ابن سبأ اليهودي، وملأ صدورهم حقداً على رجل كانت تستحيي منه الملائكة، وهم أحد رجلين: إما زنديق حاقد، أو جاهل لا يدري من هو عثمان بن عفان، والدليل على جهلهم أنه ليس من بينهم أحد من الصحابة السابقين في الإسلام، وإنما جاء بهم ابن سبأ من مصر والعراق، وكثير منهم حديث عهد بالإسلام، قال الألوسي:"قاتلوا عثمان رضي الله عنه لم يكونوا من الصحابة بل من أوباش مصر"[3].

(١) البخاري: المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام. رقم: ٣٦١٠.
(٢) البداية والنهاية (١٩٢/٧).
(٣) صب العذاب على من سب الأصحاب ص٢٦٦.

- **المثال الثالث**: خروج الخوارج عن أعلم أهل الأرض وأتقاهم في زمانه، ولأنهم من أجهل الناس بأصول الإسلام، جهلوا قدر علي في علمه وتقواه وسابقته في الإسلام، فكفروه وآذوه كثيراً وفي النهاية قتلوه"[1].
- **المثال الرابع**: محنة الامام أحمد رحمه الله، وكل ما وقع له من تكفير من قبل المبتدعة، واستحلال دمه وسجنه، كان كل ذلك بسبب الجهل بمكانته العلمية وورعه وتقواه[2].
- **المثال الخامس**: ما ذكره الامام أبوبكر بن العربي في كتابه أحكام القران[3] من أن بعض الجهلة من المسلمين، وكانوا جنوداً أرادوا قتل العالم الكبير أبوبكر الطرطوشي المغربي شيخ ابن العربي؛ لأنهم رأوه يرفع يديه في الصلاة عند الركوع والرفع منه، لولا تدخل ابن العربي لمنعهم من ذلك.
- **المثال السادس**: ما ذكره الامام الشاطبي في كتابه الاعتصام[4]، أن رجلاً من عظماء الدولة وأهل الوجاهة، أراد أن يقتل إماماً في المسجد معروفاً بعلمه وصلاحه وتمسكه بالسنة النبوية؛ لأنه في زعم هذا الجاهل لا يلتزم الدعاء في أدبار الصلوات الخمس على الهيئة الجماعية.

ولو تتبعنا الحوادث التي من هذا النوع لوجدناها بالمئات، وهي أمثلة ناطقة بنفسها ومفصحة عن المقصود من أرادها، مغنية عن أي شرح آخر أو إبراز؛ إذ بالمثال يتضح المقال.

(١) البداية والنهاية ٢٨٩/٧.
(٢) البداية والنهاية ٣٤٥/١٠.
(٣) ١٩١٢/٤.
(٤) ٧٨٧/٢-٧٨٨.

المبحث الثامن
العلاج

من المسلم به عند العقلاء والعلماء أن الجهل داء قاتل ومرض عضال، وما من شر وجد على وجه الأرض إلا كان نتيجة الجهل، والأمراض التي تصيب الانسان تتنوع ما بين أمراض القلوب والأبدان والأرواح، ومع تنوعها وتعددها فإن الله جعل لكل داء دواء علمه من علمه، وجهله من جهله، قال ﷺ: "ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء "[1]، وقال ﷺ: "لكل داء دواء فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله عز وجل"[2]، وقال ﷺ: "إن الله عز وجل لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه وجهله من جهله"، وفي لفظ: "إن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاءً ودواءً إلا داء واحداً، قالوا: يا رسول الله، ما هو؟ قال: الهرم"[3].

وقد جعل النبي ﷺ الجهل داء، وجعل دواؤه سؤال العلماء، كما في حديث صاحب الشجة الذي أفتاه أصحابه بالاغتسال بدل التيمم فمات، فقال ﷺ: "قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا فإنما شفاء العي السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر أو يعصب على جرحه خرقة، ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده".[4]

فأخبر أن الجهل داء، وأن شفاءه السؤال، وقد أخبر الله بأن القران شفاء، فقال: "قل هو للذين ءامنوا هدى وشفاء"، وقال: "وننزل من القران ما هو شفاء ورحمة للمومنين".

قال ابن القيم رحمه الله: "فهو شفاء للقلوب من داء الشك والجهل

(١) البخاري: كتاب الطب، رقم: ٥٦٧٨.
(٢) مسلم: كتاب السلام، رقم: ٢٢٠٤.
(٣) أحمد في المسند (٢٧٨/٤) وصححه الألباني في الصحيحة برقم ١٦٥٠.
(٤) أبو داود (٣٣٦)، والدارقطني ١٨٩/١، ١٩٠. ٣. وقال الألباني: حسن، دون قوله:"إنما يكفيه".

والريب"[1]، وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في مكان آخر بعض الأمراض القلبية التي منها مرض الشهوات والشبهات والرياء والكبر والعجب والحسد والفخر والخيلاء وحب الرياسة، ثم قال: "وهذه الأمراض كلها متولدة عن الجهل، ودواؤها العلم، كما في حديث صاحب الشجة"[2].

فالجهل داء ودواؤه العلم، فبالعلم يعرف الانسان مداخل الشيطان ومكايده وحبائله ووساوسه، والله بحكمته البالغة سلط على العبد عدواً عالماً بطرق هلاكه، وأسباب الشر الذي يلقيه فيه متفننا فيها خبيراً بها، فالعلم هو العلاج، ولكن هذا العلاج لا بد فيه من الطبيب الماهر الذي يضع لك الوصفة الطبية، وإلا فإنه قد يكون غير نافع، والطبيب هنا هو العالم الرباني الفقيه الورع التقي، فقد ذكر الإمام الشاطبي: "إن العلم كان في صدور الرجال، ثم انتقل إلى الكتب وصارت مفاتيحه بأيدي الرجال"[3]، فالعلاج هو العلم، ولكن بالآداب المتبعة عند أهله.

وحكى لي عالم من علماء المغرب أنه وصله عن رجل يحرم صيام ستة أيام من شوال وينهى الناس عن صيامها فذهب إليه وقال له من أين لك هذا الكلام فقال: إنه موجود عنده في مخطوط، فطلب منه العالم هذا الكتاب فوجد فيه "ولا يجوز صيام ستة أيام" وانتهت الصفحة و في الصفحة الموالية شرحها بأنها "عيد الأضحى وعيد الفطر و يوم الجمعة وأيام التشريق الثلاثة" لكن صاحبنا لم يقلب الصفحة، وفعل كمن يقف على "فويل للمصلين" ولو تتبعنا مثل هذه الأحوال لطال بنا الأمر ولكن يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق، والأمثلة كثيرة والله المستعان.

(١) الجواب الكافي ص٤.
(٢) مفتاح دار السعادة، العلم وفضله ص١١٦-١١٧.
(٣) الموافقات ١/ ٥٩-٦٠.

الفصل الثاني
الهوى، وأثره في ظاهرة التكفير

وفيه مباحث:

المبحث الأول
تعريف الهوى

قال في اللسان: "الهوى مقصور هوى النفس... والهوى محبة الإنسان الشيء وغلبته على قلبه، قال الله عز وجل: ﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى ﴾، معناه: نهاها عن شهواتها، وما تدعوا إليه من معاصي الله عز وجل، نقول: هوى بالكسر يهوي هوىً، أي: أحب، ومتى تكلم بالهوى مطلقاً لم يكن إلا مذموماً حتى ينعت بما يخرج معناه، كقولهم: هوى حسن، وهوى موافق للصواب[1].

وفي المفردات للراغب: "الهوى ميل النفس إلى الشهوة، ويقال ذلك للنفس المائلة إلى الشهوة، وقيل: سمي بذلك لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية... وقد عظم الله تعالى ذم اتباع الهوى فقال: "أفرايت من اتخذ إلهه هواه... وقوله: ﴿ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ فإنما قاله بلفظ الجمع تنبيهاً على أن لكل واحد هوى غير هوى الآخر، ثم هوى كل واحد لا يتناها، فإذاً اتباع أهوائهم نهاية الضلال والحيرة، وقال: ﴿ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾، وقال: ﴿ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ ﴾، أي: حملته على اتباع الهوى"[2].

(١) اللسان ٣٧٢/١٥. مادة: (هوا).
(٢) المفردات (ص ٥٤٨).

وقال الجرجاني: "الهوى ميلان النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع"[1].

وقال ابن تيمية: "ونفس الهوى – وهو الحب والبغض الذي في النفس – لا يلام عليه، فإن ذلك قد لا يملك، وإنما يلام على اتباعه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ﴾[2]"[3]، وقال ابن القيم رحمه الله: "الهوى ميل الطبع إلى ما يلائمه"[4].

(١) التعريفات ص ٢٥٧.
(٢) الآية ٥٠ من سورة القصص.
(٣) مجموع الفتاوى (١٣٢/٢٨).
(٤) روضة المحبين ص٤٦٧.

المبحث الثاني
خطر الهوى على الانسان قد يصل إلى منعه من التوبة

إذا ما تتبعنا الآيات القرانية والأحاديث النبوية وآثار السلف الصالح وكلام العلماء الربانيين والأئمة المربين نجد أن الاهتمام بهذا الداء العضال، والمرض المزمن القتال، بلغ مبلغاً عظيماً من حيث التنفير منه والتحذير، وما ينطوي عليه من الشر المستطير، حتى إن الإنسان العاقل الحر، ليدرك بأقل تأمل ونظر، ما فيه من مهالك وضرر.

وإذا كنا قد بينا في الفصل الأول ما في الجهل من ضرر ووبال، وعرفنا أن شفاء العي السؤال، بحيث يكفي في علاج الجهل أن نتعلم، فإن الهوى بعكس ذلك لا ينفع معه العلم، لأنه يعمي وصم، وأنى للصم البكم العمي أن يفهم.

ومن تتبع أسباب وقوع الشرك والمبتدعات، ووقوع الكبائر والموبقات، التي تقع بسبب الخروج على ولاة الأمور والحكومات، وكل ما وقع على وجه الأرض من المهلكات، كسفك الدماء، وانتهاك الحرمات، بل إن إبعاد إبليس وطرده من روضات الجنات، كان بسبب اتباعه للهوى والشبهات، وأبونا آدام أخرج من الجنة لأنه نسي عهد الله له وتحذيره من إبليس الداعي إلى الشهوات، وقع هذا وسيقع أكثر؛ لأن الهوى يستعبد الإنسان ويأسره، ولا يسمح له باستخدام عقله ونظره في نصوص الشرع وكلام العلماء، وإذا حيل بين الإنسان وعقله، وبينه وبين شرع ربه، فإنه يفقد أهم وسيلتين يعرف بهما الحق من الباطل، والغواية من الهداية، والهوى من الوحي، قال تعالى:﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا

الأَلْبَابِ ﴾[1].

ولما علم إبليس شدة خطورة الهوى على الإنسان وفتكه به اتخذه سلاحاً في يده وأعطاه لجنوده، وجعله من شباكه وشراكه وفخاخه، فقد أسند البخاري في الأدب المفرد أن النعمان بن بشير قال على المنبر: "إن للشيطان مصالي[2] وفخوخاً، وإن مصالي الشيطان وفخوخه: البطر بأنعم الله، والفخر بعطاء الله، والكبرياء على عباد الله، واتباع الهوى في غير ذات الله"[3].

فالهوى إذا تمكن من قلب الإنسان طمسه وختم عليه، وجعله في الجنة لا ينفد إليه شيء إلا أن يلطف الله به، ويؤثر ذلك على سمعه وبصره، فلا يسمع الحق ولا يبصره، فكيف يهتدي إذن، والله المستعان.

قال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾[4].

وقد صور النبي ﷺ هذا النوع من القلوب تصويراً عجيباً في لونه وصفته، فلونه كبياض يخالطه سواد، وصفته وهيئته كالكوز المقلوب المنكوس الذي لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً، فهو قلب ونكس حتى لا يعلق به خير ولا حكمة، فقال ﷺ: "تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مرباداً كالكوز مجخياً لا يعرف

(١) الآية من سورة الرعد.
(٢) جمع: مصلاة، أي: الشرك.
(٣) صحيح الأدب المفرد ص٢٠٨ رقم: ٤٣٠.
(٤) الآية ٢٢ من سورة الجاثية.

معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه"[1].

وتمكن الهوى من قلوب بعض الأمم هو الذي جعلها تكذب الأنبياء، وتستكبر عن قبول الحق، الذي جاءوا به، قال تعالى: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ، وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ ﴾[2].

وكل من لم يستجب لرسول الله ﷺ من هذه الأمة سواء كان من أمة الإجابة أو من أمة الدعوة فإنما هو في الحقيقة متبع لهواه، أدرك ذلك أم لم يدركه.

ومن أعجب الأشياء أنك لا تدري وأنك لا تدري بأنك لا تدري، قال تعالى: ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[3].

قال الشيخ السعدي رحمه الله: "فهذا من أضل الناس حيث عرض عليه الهدى والصراط المستقيم الموصل إلى الله وإلى دار كرامته فلم يلتفت إليه، ولم يقبل عليه ودعاه إلى سلوك الطريق الموصلة إلى الهلاك والشقاء فاتبعه وترك الهدى[4].

وبلغ الأمر مداه عندما أمر الله نبيه باتباع الشريعة التي أنزلها عليه، وحذره من اتباع أهواء الذين لا يعلمون، فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنْ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾.

وشهد الله لرسوله ﷺ بأنه راشد تابع للحق ليس بضال ولا غاوٍ، بل هو ﷺ

(١) صحيح مسلم (ك: الإيمان. باب ٦٥. رقم: ١٤٤).
(٢) الآية ٨٧ من سورة البقرة.
(٣) الآية ٥٠ من سورة القصص.
(٤) تيسير الكريم الرحمان ص٥٦٨.

وما بعثه الله به من الشرع الكريم في غاية الاستقامة والاعتدال والسداد[١]، فهو منزه عن النطق بالهوى، قال تعالى: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى، مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى، وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾[٢]، قال الشيخ السعدي رحمه الله:"أي ليس نطقه صادراً عن هوى نفسه"[٣].

وكما أخبر الله في كتابه العزيز أنه أمر نبيه محمداً ﷺ باتباع الحق وعدم اتباع الهوى، فإنه أمر الأنبياء قبله بذلك، قال تعالى في حق نبيه داود عليه السلام: ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعْ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾[٤]، قال الشيخ السعدي رحمه الله: " أي: فيضلك الهوى عن سبيل الله ويخرجك عن الصراط المستقيم"[٥]، وقال ابن تيمية رحمه الله: "وكذلك من أعرض عن اتباع الحق الذي يعلمه تبعاً لهواه، فإن ذلك يورثه الجهل والضلال حتى يعمى قلبه عن الحق الواضح"[٦].

وأقبح شيء في اتباع الهوى هو اتباعه في الديانات والعقائد المنحرفة التي تكون عند كثير من النحل والفرق والطوائف والأحزاب والجماعات، قال ابن تيمية رحمه الله:"واتباع الأهواء في الديانات أعظم من اتباع الأهواء في الشهوات؛ فإن الأول حال الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، كما قال تعالى: ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾[٧]، وقال:

(١) تفسير ابن كثير عند بداية سورة النجم.
(٢) سورة النجم الآيات ١–٣.
(٣) تيسير الكريم المنان ص ٧٦٠.
(٤) الآية ٢٦ من سورة ص.
(٥) تيسسير الكريم المنان ص ٦٥٨.
(٦) مجموع الفتاوى (١٠/١٠).
(٧) الآية ٥٠ من سورة القصص.

﴿ بَلْ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[1]، وقال: ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[2]، وقال:﴿ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾[3]، وقال: ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾[4]، وقال: ﴿ وَأَنْ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾[5]، ولهذا كان كل من خرج عن موجب الكتاب والسنة من العلماء والعباد يجعل من أهل الأهواء كما كان السلف يسمونهم أهل الأهواء، وذلك أن كل من يتبع العلم فقد اتبع هواه، والعلم بالدين لا يكون إلا بهدى الله الذي بعث به رسوله ﷺ"[6].

ولصعوبة التخلص من الهوى وشدة وطئته على النفس، وما يستدعي ذلك من جهاد ومجاهدة حتى إن النبي ﷺ جعل مجاهدة النفس هي الجهاد الحقيقي، كما في قوله ﷺ:"... والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله..."[7]، من أجل ذلك وغيره جعل الله عدم اتباع الهوى ونهي النفس عنه شرطاً في دخول الجنة فقال: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾[8].

فالمقصد الشرعي الذي جاءت به الشريعة، هو عبودية الله وحده دون

(١) الآية ٢٨ من سورة الروم.
(٢) الآية ١٢٠ من سورة الأنعام.
(٣) الآية ٧٩ من سورة المائدة.
(٤) الآية ١١٩ من سورة البقرة.
(٥) الآية ٥١ من سورة المائدة.
(٦) مجموع الفتاوى ٢٨/ ١٣٢–١٣٣.
(٧) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/٢١. وصححه الحاكم (١/١١) ووافقه الذهبي.
(٨) النازعات (٣٩–٤٠).

غيره، وتحرير قلبه من التوجه والالتفات إلى غيره، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾[1].

واتباع الهوى يتنافى مع هذا المقصد الشرعي الذي خلق لأجله الإنسان، ولذلك قال الإمام الشاطبي رحمه الله: " المقصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المكلف من داعية الهوى حتى يكون عبداً لله اختياراً كما هو عبد لله اضطراراً "[2].

فالله تعالى يريد من العبد أن يرجع إليه في جميع الأحوال، والانقياد إلى أحكامه على كل حال، وهو معنى التعبد لله الذي يشير إليه مثل قوله تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ﴾[3].

وقد جعل الله الهوى قسيماً للحق ومضاداً له، كما في قوله تعالى: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعْ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾[4]، وقال تعالى:﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾[5]، قال الشاطبي رحمه الله: "فقد حصر الأمر في شيئين: الوحي – وهو الشريعة–، والهوى، فلا ثالث لهما، وإذا كان كذلك فهما متضادان، وحين تعين الحق في الوحي توجه للهوى ضدُه، فاتباع الهوى مضاد للحق... فهذا كله واضح في أن قصد الشارع الخروج عن اتباع الهوى والدخول تحت التعبد للمولى"[6].

وقد بين الإمام الشاطبي رحمه الله أن كل عمل قصد به صاحبه الهوى بإطلاق فهو باطل فقال:«..كل عمل كان المنبع فيه الهوى بإطلاق من غير

(١) الآية ٥٦ من سورة الذاريات.
(٢) الموافقات ١٢٥/٢.
(٣) الآية ٣٦ من سورة النساء.
(٤) الآية ٢٦ من سورة ص.
(٥) الآية ٣–٤ من سورة النجم.
(٦) الموافقات ١٢٦/٢.

التفات إلى الأمر والنهي أو التخير فهو باطل بإطلاق؛ لأنه لابد للعمل من حامل يحمله عليه، و داع يدعوا إليه، فإذا لم يكن لتلبية الشارع في ذلك مدخل، فليس إلا مقتضى الهوى والشهوة، وما كان كذلك فهو باطل بإطلاق، لأنه خلاف الحق بإطلاق، فهذا العمل باطل بإطلاق بمقتضى الدلائل المتقدمة»[1].

وقد نبه رحمه الله على أمر في الهوى قد يخفى على كثير من الناس و هو عندما يهوى الإنسان شيئا ويكون مقصودا للشارع أيضا، فهنا ينبغي أن يحذر الإنسان ويعمل العمل على أنه مشروع لا على أنه شيء تميل إليه نفسه، كمن يفتح عليه في العلوم أو يكرم ببعض الكرامات أو يوضع له القبول في الأرض فهذا مما يدخل على النفس البهجة والأنس، فلعلها تنزع إلى مقدمات تلك النتائج، فتكون سابقة للأعمال، ويكون الدافع للعمل هو ما ترتاح إليه، لا لأن الله شرعه، ولذلك قالوا الهوى في المحمود ليس بمذموم على الجملة لكنه، قد يصير إلى المذموم على الإطلاق، ودليل هذا مأخوذ من استقراء أحوال السالكين، وأخبار الفضلاء والصالحين[2].

واتباع الهوى في الأحكام الشرعية مظنة لأن يحتال بها على أغراضه فتصير كالآلة المعدة لاقتناص أغراضه.. ولعل الفرق الضالة المذكورة في الحديث أصل ابتداعها اتباع أهوائها دون توخي مقاصد الشرع[3].

وقال رحمه الله في سبب وقوع أهل الأهواء في الضلال والبدع و الانحراف: ««ولذلك سمي أهل البدع أهل الأهواء لأنهم اتبعوا أهواءهم فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها والتعويل عليها حتى يصدروا عنها بل قدموا أهواءهم واعتمدوا على آرائهم ثم جعلو الأدلة الشرعية منظورا فيها من وراء

(١)الموافقات ٢/١٢٨-١٢٩.
(٢)الموافقات ٢/١٣٠-١٣١.
(٣)الموافقات ٢/١٣١.

ذلك.. ردوا كثيرا من الأحاديث الصحيحة بعقولهم، وأساءوا الظن بما صح عن النبي ﷺ، وحسنوا ظنهم بآرائهم الفاسدة، حتى ردوا كثيرا من أمور الآخرة وأحوالها.. بل صيروا العقل شارعا جاء الشرع أوْ لا، بل إن جاء فهو كاشف لمقتضى ما حكم به العقل»[1].

وقد وصف ابن عبد البر من ابتلي بالأهواء المردية والبدع المحدثة بأنه «لا يحب أن يقصر فيها، ولا أن ينتقل عنها، ويود أن لا يأتيه الموت إلا عليها، فهو مفتون مغرور مندرج، قد أصابته فتنة وزين له فيها سوء عمله، يود أن يكون الناس كلهم مثله»[2].

ولقد جلست يوما مع شخص تجاوز عمره الستين وهو من أتباع طريقة عندها كفريات وشركيات وكان يقدرني ويحترمني فاستخدمت هذا التقدير والاحترام في نصحه فجلست معه برفقة بعض أهل العلم وبينا له بيانا نراه شافيا في أن ما عليه من تدين ليس بصحيح في جانبه الاعتقادي أما العملي فأثنينا عليه خيرا لأنه من أشد الناس محافظة على الصلاة ويعمل الخير، وله أخلاق حسنة، وبعد ساعة من البيان والاستماع قال لنا: على كلٍ جزاكم الله خيرا على هذه النصيحة ولكني أرجو أن أموت على عقيدة شيخي فقلت له لو رجوت أن تموت على الحق أو على عقيدة النبي ﷺ والصحابة الكرام لكان رجاؤك في محله؛ لأن شيخك يصيب ويخطئ لكنه مع الأسف لم يتزحزح عما هو عليه قيد أنملة، ويود الموت على ذلك مصداقا لما قاله ابن عبد البر ومما يدل على شدة تمسك أهل الأهواء ببدعهم – وأنهم مهما قوتلوا وحوربوا من قبل أهل الحق فإنهم يبقون مصرين وإن قطع دابرهم عشرات المرات – قول النبي ﷺ: «ينشأ نشء يقرؤون القرءان لا يجاوز تراقيهم كلما خرج قرن

(١)الاعتصام ٢/٦٨٣–٦٨٤.
(٢)التمهيد ١٧/٣٩٥.

قطع»، قال ابن عمر رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول:"كلما خرج قرن قطع" أكثر من عشرين مرة « حتى يخرج في عراضهم الدجال»[1].

فمخالفة الهوى من أشق الأشياء على النفس وأصعبها، وإلى هذا المعنى يشير الإمام الشاطبي رحمه الله بقوله: مخالفة ما تهوى النفس شاق عليها وصعب في خروجها منه، ولذلك بلغ أهل الهوى في مساعدته مبالغ لا يبلغها غيرهم، وكفى شاهدا على ذلك حال المحبين وحال من بعث إليهم رسول الله ﷺ من المشركين وأهل الكتاب وغيرهم ممن صمم على ماهو عليه حتى رضوا بإهلاك النفوس والأموال ولم يرضوا بمخالفة الهوى حتى قال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ[2] ﴾ ، وقال: ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ ﴾[3]». وقال: ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾[4][5].

(١)سنن ابن ماجه. المقدمة رقم ١٧٤ وفي صحيحه برقم ١٤٤.
(٢)الجاثية. الآية: ٢٣.
(٣)النجم. الآية: ٢٣.
(٤)سورة محمد. الآية: ١٤.
(٥)الموافقات. ١١٣/٢.

المبحث الثالث
تحذير النبي ﷺ من الهوى

جاءت نصوص كثيرة عن النبي ﷺ تحذر من اتباع الهوى وتنفر منه بأساليب متعددة، وصور مختلفة، تدل بمجموعها على أن اتباع الهوى من أخطر الأمراض التي أصيبت بها الإنسانية على مستوى المجتمعات والأفراد، ففي تصوير عجيب وتشبيه غريب يقول النبي ﷺ: "ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين: ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة، وهي الجماعة، وإنه سيخرج من أمتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله"(١).

يقول الشاطبي رحمه الله في تبيين هذا التشبيه:"وبيان ذلك أن داء الكلَب فيه ما يشبه العدوى، فإن أصل الكلب واقع بالكَلْب، ثم إذا عض ذلك الكلب أحداً صار مثله، ولم يقدر على الانفصال منه في الغالب إلا بالهلكة، فكذلك المبتدع إذا أورد على أحد رأيه وإشكاله فقلما يسلم من غائلته، بل إما أن يقع معه في مذهبه ويصير من شيعته، وإما أن ينبت في قلبه شكاً يطمع في الانفصال عنه فلا يقدر"(٢).

وأخبرنا النبي ﷺ أن مما يخشاه على أمته مضلات الأهواء كما في

(١) أبو داود في سننه، ك: السنة باب ١ رقم: ٤٥٩٧. وفي صحيح أبي داود برقم: ٣٨٤٢ والمسند ١٠٢/٤.
(٢) الاعتصام (٧٨٩/٢-٧٩٠).

قولـه:"إن ممـا أخـشى علـيكم بعـدي بطـونكم وفـروجكم ومـضلات الأهواء"[1].

وكان ﷺ يستعيذ بالله من الأهواء كما في قوله ﷺ:"اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء"[2].

وبين ﷺ أن اتباع الهوى من المهلكات فقال:"ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهـوى متبـع، وإعجـاب المـرء بنفـسه، وثـلاث منجيـات: خـشية الله في الـسر والعلانية، والقصد في الفقر والغنى، والعدل في الرضا والغضب"[3].

(١) السنة لابن أبي عاصم برقم: ١٤/ ص١٢. قال الشيخ الألباني رحمه الله: إسناده صحيح.
(٢) صحيح سنن الترمذي برقم: ٢٨٤٠.
(٣) حلية الأولياء (٣٤٢/٢)، وصححه الألباني في الصحيحة برقم: ١٨٠٢.

المبحث الرابع
تحذير السلف من الهوى

وكعادة السلف في تحذيرهم من الأمور الخطيرة التي نهى عنها الشارع، فإنه وردت عنهم آثار كثيرة في التحذير من اتباع الهوى واجتنابه وهجر أهله حتى لا يصاب من قل علمه وضعفت حميته بهذا المرض المعدي.

فعن ابن عمر رضي الله عنه قال:"ما فرحت بشيء من الإسلام أشد فرحاً بأن قلبي لم يدخله شيء من هذه الأهواء"[1].

وعن الشعبي[2] رحمه الله قال:"إنما سميت الأهواء لأنها تهوي بصاحبها في النار"[3].

وعن طاوس[4]قال:"ما ذكر الله هوى في القرآن إلا عابه"[5].

وقال أبو العالية[6]:"ما أدري أي النعمتين علي أعظم إذ أخرجني الله من الشرك إلى الإسلام، أو عصمني في الإسلام أن يكون لي فيه هوى"[7].

وعن أبي الجوزاء[8] قال:"لأن يجاورني قردة وخنازير أحب إلي من أن

(١) شرح أصول الاعتقاد ١/١٣٠.
(٢) هو عامر بن شراحيل بن عبد بن ذي كبار (ت١٠٤). السير ٤/٢٩٤.
(٣) شرح أصول الاعتقاد ١/١٣٠.
(٤) طاووس بن كيسان الفقيه القدوة عالم اليمن، أبوعبدالرحمن الفارسي، ثم اليمني (ت١٠٦). السير ٥/٣٨.
(٥) شرح أصول الاعتقاد ١/١٣٠.
(٦) هو رفيع بن مهران الرياحي البصري، الإمام المقرئ الحافظ المفسر (ت٩٠أو ٩٣). السير ٤/٢٠٧.
(٧) شرح أصول الاعتقاد ١/١٣١.
(٨) هو أوس بن عبدالله الربعي البصري من كبار العلماء، كان من الذين قاموا على الحجاج، وقتل يوم الجماجم. السير ٤/٣٧١.

يجاورني أحد منهم، يعني أهل الأهواء"[1].

وقال محمد بن سيرين[2]:"لو خرج الدجال لرأيت أنه سيتبعه أهل الأهواء"[3].

وكان الحسن البصري[4] يقول:"لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تسمعوا منهم"[5].

وعن أيوب السختياني[6] قال: قال لي أبو قلابة: يا أبا أيوب احفظ عني أربعاً: لا تقولن في القران برأيك، وإياك والقدر، وإذا ذكر أصحاب محمد فأمسك، ولا تمكن أصحاب الأهواء من سمعك"[7].

وكان يقول أيضاً: "لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم، فإني لا آمن أن يغمسوكم في الضلالة أو يلبسوا عليكم في الدين بعض ما لبس عليهم"[8].

وقال رجل من أهل الأهواء لأيوب السختياني: "يا أبابكر أسألك عن كلمة، قال: فولى أيوب وجعل يشير بأصبعيه، ولا نصف كلمة ولا نصف كلمة"[9].

ودخل رجلان من أهل الأهواء على محمد بن سيرين، فقالا: "يا أبابكر نحدثك بحديث فقال: لا، قالا: فنقرأ عليك آية من كتاب الله، قال: لا،

(١) شرح أصول الاعتقاد ١٣١/١.
(٢) هو شيخ الإسلام محمد بن سيرين أبوبكر الأنصاري البصري، مولى أنس بن مالك (ت١١٠)، السير ٦٠٦/٤.
(٣) شرح أصول الاعتقاد ١٣١/١.
(٤) هو الحسن بن أبي الحسن يسار أبو سعيد، ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر رضي الله عنه، ومات سنة ١١٠هـ. السير ٥٦٣/٤.
(٥) شرح أصول الاعتقاد ١٣٣/١.
(٦) هو الامام الحافظ سيد العلماء، أبوبكر بن أبي تميمة كيسان العنزي (ت١٣١هـ). السير ١٥/٦.
(٧) شرح أصول الاعتقاد ١٣٤/١.
(٨) الشريعة للآجري ٤٣٥/١. والإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ٤٣٥/٢.
(٩) الشريعة للآجري ٤٤٠/١.

لتقومن عني، أو لأقومنه"[1].

وقال رجل لابن عباس: "الحمد لله الذي جعل هوانا على هواكم، فقال ابن عباس: الهوى كله ضلالة[2].

وعن ابن عباس قال: لا تجالس أهل الأهواء فإن مجالستهم ممرضة للقلوب[3].

ولو تتبعنا أقاويل السلف في هذا الباب لطال بنا الأمر، وإنما المقصود من سرد هذه الأقوال التمثيل بها على غيرها.

(١) الشريعة للآجري ٤٤١/١.
(٢) الشريعة للآجري ٤٤٥/١.
(٣) الشريعة للآجري ٤٥٢/١.

المبحث الخامس
كيف يؤدي الهوى إلى التكفير؟

إذا استوعبنا ما سبق ذكره من حيث معرفة الهوى معرفة حقيقية، وعرفنا خطورته، وشدة وطأته على الانسان، وتمكنه من إغلاق منافذ العلم والاستفادة إغلاقاً محكماً، وتعطيلها تعطيلاً تاماً تصبح معه في حكم العدم، كما قال تعالى: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ ﴾[1]، وقال:﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾[2]، إذا عرفنا كل ذلك سهل علينا أن ندرك أثر الهوى في ظاهرة التكفير.

أضف إلى ذلك أن شهوة التكفير كامنة في نفوس محبيها والمعجبين بها، وأنها أصبحت هي الأصل، ونصوص الكتاب والسنة وآثار السلف تابعة ومحكومة، بدل أن تكون هي الحاكمة، مما يجعل نصوص القران والسنة غير مؤثرة في أهل التكفير، لأنهم اعتقدوا أن ما هم عليه هو الحق، ثم بدؤوا يبحثون له عن أدلة لتثبيته والدفاع عنه، وكل من كان على هذه الشاكلة فإنه لن يستخدم النصوص إلا إذا وافقت هواه، وكثير منهم يعتقدون بطلان ما هم عليه، ولكن الهوى يعمي ويصم، كما قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾"[3]، وقال: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا

(١) الآية ١٧٩ من سورة الأعراف.
(٢) الآية ٢٥ من سورة الأحقاف.
(٣) الآية ٣٤ من سورة الأنعام.

وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾[1]، وهذا يكثر عند كبارهم وقادتهم الذين يتمتعون بحب الرياسة والشهرة التي عرف أن كل من ابتلي بها يقاتل عليها حتى الموت.

وإننا على يقين بأن بعض من يكفر الحكام أو المجتمعات إنما يكفرونهم لا لأنهم كفار، وإنما لأنهم بهذا التكفير يسوغون قتالهم والخروج عليهم، ليصلوا إلى شهوة خفية لا يبوحون بها، وبعضهم قد يبوح بها ويعلنها، وهي الوصول إلى الحكم، والتحكم في رقاب الناس من أجل نشر تلك الأفكار التي يعتقدونها بقوة الحديد والنار، ومن الطبيعي: أنهم إذا سئلوا لماذا تفجرون وتقتلون الأبرياء وتقاتلون الحكام، لن يجدوا حجة غير قولهم: إن الحكام كفار يجب قتالهم، وهم يتمترسون وراء الأبرياء، فإن كان الهدف هو الوصول إلى الحكم، فإن كل شيء دونه يهون عندهم، فلن يتركوا سبيلاً يوصلهم إلى هدفهم إلا سلكوه، إن كان عن طريق رد النصوص وتضعيفها كما فعلوا مع خبر ابن عباس في معنى قوله تعالى:﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ ﴾[2]، بأنه كفر دون كفر وأنه ليس بالكفر المخرج من الملة، وأن الآية ليس على إطلاقها.

أو تأويلها كما فعلوا مع نفس الآية على ما رواه الآجري عن سعيد بن جبير:"...ومما يتبع الحرورية[3] من المتشابه قول الله تعالى:﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ ﴾[4]، ويقرءون معها ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾[5]، فإذا رأوا الإمام حكم بغير الحق، قالوا: قد كفر ومن

(١) الآية ١٤ من سورة النمل.
(٢) الآية ٤٦ من سورة المائدة.
(٣) الحرورية هم الخوارج.
(٤) سورة المائدة الآية رقم:٤٤.
(٥) الآية ٢ من سورة الأنعام.

كفر عدل بربه، ومن عدل بربه فقد أشرك"، فهذه الأمة مشركون، فيخرجون فيفعلون ما رأيت؛ لأنهم يتأولون هذه الآية"[1].

وأحياناً من أجل الطعن في عالم أو حاكم يسلكون مسلك الكذب والبهتان كما فعل بعض الناقمين على العلماء، الباحثين عن عيوبهم ومثالبهم، فإن لم يجدوا لهم عيوباً كذبوا عليهم، ولا تحلوا مجالسهم إلا بالطعن في العلماء، حيث إنهم اتهموا الشيخ ابن باز بانه زار المغرب مرة وذهب إلى قبر من القبور التي تزورها الشخصيات الرسمية، وصدقه بعض من لا علم له بحياة الشيخ ابن باز، ولما وصلني الخبر قلت لهم: إن الشيخ ابن بازلم يغادر المملكة العربية السعودية قط، وهذه من المعلومات المعروفة عن الشيخ، فلما رجعوا إلى محدثهم، وأخبروه بما أخبرتهم به، قال لهم: إن مخبركم هذا لا علم له بالواقع، وهذه من المعلومات التي لا يعلمها إلا القليل حسب زعمه.

وأما الحكام فإنهم بسبب أن التأكد مما يشاع حولهم من الصعوبة بمكان، فإنهم يشيعون حولهم ما شاؤوا من مفتريات وأكاذيب، ولا يكلفون أنفسهم العمل بقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾[2].

وإذا كان اتباع الهوى قد أوقع اليهود والنصارى وكل المشركين في الأمم السابقة في الكفر والضلال والفرقة والاختلاف كما قال تعالى: ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾[3]، وقال: ﴿ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ

(١) الشريعة للآجري ٣٤٢/١.
(٢) الآية ٦ من سورة الحجرات.
(٣) الآية ١١٩ من سورة البقرة.

بالآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾[1]، فإنه كذلك أوقع هذه الأمة في مصائب لا نهاية لها يدل على هذا ان كل الفرق التي حدثت في تاريخ الأمة الإسلامية كانت بسبب اتباع الأهواء بدءاً من رأسهم الأول الذي خرج على عهد رسول الله ﷺ وهو يقسم الغنائم في حنين فقال له:"اعدل يا محمد فما أراك تعدل"، فقال له ﷺ: "ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل، لقد خبت وخسرت إن لم أعدل"، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله ألا أقوم فأقتل هذا المنافق؟، قال: «معاذ الله أن تتسامع الأمم أن محمدا يقتل أصحابه»، ثم أخبر ﷺ أن هذا وأصحابه يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية[2].

وهكذا أحفاده الذين خرجوا على عثمان ابن عفان رضي الله عنه حتى قتلوه، فإن الدافع لهم على ارتكاب تلك الجريمة ليس هو الجهل؛ لأنه رضي الله عنه عندما جاؤوه أول في المرة الأولى، واتهموه ببعض الأشياء التي هو منها براء بين لهم حقيقة الأمر، وبذلك زال جهلهم، ولكنهم بسبب الهوى وحقد في نفوسهم اختلقوا أكاذيب عليه لا أساس لها من الصحة، وبذلك وصلوا إلى هدفهم الدنئ، والله المستعان.

وكذلك الخوارج الذين خرجوا على علي رضي الله عنه وكفروه لم يكن استمرارهم على القول بتكفيره بسبب جهلهم؛ لأن الجهل رفعه عنهم ابن عباس رضي الله عنه عندما حاججهم فرجع الثلثان منهم، وإنما كان الاصرار منهم على موقفهم بسبب الهوى الذي يعمي ويصم.

وكذلك السبئية أتباع عبد الله ابن سبأ الذين سموا فيما بعد بالشيعة،

(١) الآية ١٥١ من سورة الأنعام.

(٢) صحيح مسلم: الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، رقم: ١٠٦٣.

فإن الأهواء هي التي دفعتهم إلى تلك الأفعال القبيحة والمعتقدات الشنيعة المبنية على الأكاذيب والحيل، وهكذا يقال في القدرية والمرجئة والمعتزلة وكل من جاء من بعدهم، وأقبح أهل الأهواء على العموم، هم الخوارج قديما وحديثا؛ لأنهم من أكثر الناس إصرارا على اتباع الهوى والتشبث بعقائدهم، وقد عرفوا باستخدام العنف والقتال من أجل مبادئهم فالميزان عندهم هي تلك الأهواء، فكل من خالفهم فيها فهو كافر يحل دمه ويجب قتاله ويكفي دليلا على اغترارهم بمبادئهم وعقائدهم أنهم كفروا عليا ابن أبي طالب وقاتلوه ثم قتلوه وهو من هو في العلم والفضل والصلاح والخوف من الله ويكفي أنه من أهل الجنة وزوج فاطمة وأبي السبطين وصهر الرسول الأعظم ﷺ، وبهذا نعرف أن الخوارج من أشد الناس خطرا على الأمة ولذلك جعلهم الإمام الشاطبي في الدرجة الأولى من أهل الأهواء الذين يتجارى بهم الهوى كما يتجارى الكلب بصاحبه فقال رحمه الله:"يصح أن يختلف التجاري، فمنه ما يكون في الغاية حتى يخرج إلى الكفر أو يكاد، ومنه ما لا يكون كذلك، فمن القسم الأول الخوارج بشهادة الصادق المصدوق رسول الله ﷺ، حيث قال: "يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية"[1]. ومنه هؤلاء الذين أغرقوا في البدعة حتى اعترضوا على كتاب الله وسنةنبيه وهم بالتكفير أحق من غيرهم ممن لم يبلغ مبلغهم"[2] وقد جاء على لسان رسول الله ﷺ أنهم "شر الخلق والخليقة" كما في حديث أبي در رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:"سيكون من بعدي من أمتي قوم يقرءون القرءان لا يجاوز حلاقمهم يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية ثم لا يعودون فيه هم

(١) مسلم برقم: ١٠٦٨.
(٢) الاعتصام ص: ٧٨٣.

شر الخلق والخليقة"[1]، وقال رسول الله ﷺ في التحريض على قتلهم: "سيخرج في آخر الزمان قوم أحداث الأسنان سفهاء الأحلام يقولون من خير قول البرية يقرءون القرءان لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فإذا لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجرا لمن قتلهم عند الله يوم القيامة"[2].

ولشدة خطورة الخوارج، أعطى النبي ﷺ بعض أوصافهم وتوعدهم بالقتل فيما لو أنه أدركهم، وأخبر بأنهم سيخرجون من أصل ذلك المعترض ذي الخويصرة على رسول الله ﷺ بهواه، فقال:"إن من ضئضئ هذا قوم يقرؤون القران لا يجاوز حناجرهم يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد"[3].

(١) صحيح مسلم برقم ١٠٦٧.
(٢) صحيح مسلم برقم: ١٠٦٨.
(٣) صحيح مسلم برقم: ١٠٦٤.

المبحث السادس
كيف نسلم من اتباع الأهواء؟

لما كان الهوى من أخطر ما يصاب به البشر، فكر العلماء الناصحون للأمة في كيفية السلامة منه، كما هو ديدنهم في الأمراض المعدية التي يصاب بها الإنسان، وذلك بناء على قاعدة:"الوقاية خير من العلاج"، فإضافة إلى النصوص القرآنية والاحاديث النبوية التي تبدي وتعيد، فإن العلماء لم يقصروا في واجبهم نصحاً وإرشاداً للأمة، وكان من اولئك الأئمة العظام الذين أعطوا بعض القواعد المتينة والأسس المكينة: الإمام الآجري فإنه بعد أن ذكر ثلاثة عشر باباً كلها نصوص من القران والسنة وآثار السلف الصالح إضافة إلى تعليقاته وإرشاداته وتوجيهاته، قال:"من كان له علم وعقل فميز جميع ما تقدم ذكري له من أول الكتاب إلى هذا الموضع علم أنه محتاج إلى العمل به، فإن أراد الله به خيراً لزم سنن رسول الله ﷺ، وما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان من أئمة المسلمين في كل عصر، وتعلم العلم لنفسه لينتفي عنه الجهل، وكان مراده أن يتعلمه لله تعالى، ولم يكن مراده أن يتعلمه للمراء والجدال والخصومات ولا لدنيا، ومن كان هذا مراده سلم إن شاء الله تعالى من الأهواء والبدع والضلالة، واتبع ما كان عليه من تقدم من أئمة المسلمين الذين لا يستوحش من ذكرهم، ونسأل الله أن يوفقه لذلك"[1].

هذا عن الوقاية فماذا عن العلاج.

(١) الشريعة للآجري (١/ ٤٥٠).

المبحث السابع
علاج اتباع الهوى

لما كان بعض الناس يتساهلون في الحمية والأخذ بمبدإ الوقاية بسبب جهلهم وبعدهم عن العلماء؛ فإن العلماء لم يتركوهم يصارعون مرضهم وحدهم دون أن يساعدوهم ويقدموا لهم الحلول الناجحة؛ و الوصفات الطيبة الناجعة؛ وهذا ما يستدعيه واقع العلماء الربانيين الذين هم أرحم بأهل البدع والأهواء من رحمتهم بأنفسهم.

ومن أحسن ما كتب في هذا الباب ما ذكره ابن القيم في كتابه روضة المحبين في الباب التاسع والعشرين في ذم الهوى، وما في مخالفته من نيل المنى، حيث قال فيه: فإن قيل: فكيف يتخلص من هذا من قد وقع فيه؟ قيل: يمكنه التخلص بعون الله له وتوفيقه بأمور: وذكر خمسين خصلة من فعلها يرجى له الدواء العاجل إن شاء الله، منها العزيمة، والصبر، وقوة النفس، والنظر في عاقبة الشفاء، وإيثار لذة العفة وعزتها على لذة المعصية، و الفرح بغلبة العدو، والتفكر في أنه أمام أمر عظيم لا يناله إلا بمعصية الهوى، كما قيل:

قد رشحوك لأمر إن فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل:

- أن يفكر في الفضائل التي تفوته بسبب اتباع الهوى
- أن يأنف لنفسه عن ذل طاعة الهوى.
- أن يوازن بين سلامة الدين والعرض والمال والجاه وبين اللذة المطلوبة.
- أن يأنف لنفسه أن يكون تحت قهر عدوه.
- أن يعلم أن الهوى ما خالط شيئا إلا أفسده.

- أن يعلم أن الهوى مدخل كبير من مداخل الشيطان.
- أن يعلم أن متبع الهوى ليس أهلا للطاعة وأنه بمنزلة عابد الوتن.
- أن يعلم أن الهوى داء ودواؤه مخالفته، وأن الهوى تخليط ومخالفته حمية، وأن التوحيد واتباع الهوى متضادان، وأن الهوى أصل العداوات والشرور.
- أن يعلم أن الهوى رق في القلب وغل في العنق وقيد في الرجل.
- أن يعلم أن مخالفة الهوى تقيم العبد في مقام من لو أقسم على الله لأبره.
- أن يعلم أن مخالفة الهوى توجب شرف الدنيا والآخرة وعز الظاهر وعز الباطن[1].

وأما الإمام ابن تيمية رحمه الله فقد قال: فصلاح بني آدم: الإيمان والعمل الصالح، ولا يخرجهم عن ذلك إلا شيئان:

- أحدهما: الجهل المضاد للعلم فيكونون ضلالاً.
- والثاني: اتباع الهوى والشهوة الذين في النفس.

وهم في الصلاح على ضربين: تارة يكون العبد إذا عرف الحق وتبين له اتبعه وعمل به، فهذا هو الذي يدعى بالحكمة وهو الذي يتذكر، وهو الذي يحدث له القرآن ذكرا.

والثاني أن يكون له من الهوى والمعارض ما يحتاج معه إلى الخوف الذي ينهى النفس عن الهوى؛ فهذا يدعى بالموعظة الحسنة.

(١) روضة المحبين ص: ٤٦٧– ٤٨٢ بتصرف شديد، وننصح بمراجعة الأصل.

وكل واحد من العلم بالحق الذي يتضمنه التذكر، والذكر الذي يحدثه القرآن ومن الخشية المانعة من اتباع الهوى، سبب لصلاح حال الإنسان، وهو مستلزم للآخر إذا قوي على ضده، فإذا قوي العلم والتذكر دفع الهوى؛ وإذا اندفع الهوى بالخشية أبصر القلب وعلم. وهاتان هما الطريقة العلمية والعملية، كل منهما إذا صحت تستلزم ما تحتاج إليه من الأخرى، وصلاح العبد ما يحتاج إليه ويجب عليه منهما جميعا؛ ولهذا كان فساده بانتفاء كل منهما"[1].

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ج: ١٥/ ٢٤٢ – ٢٤٤.

الخاتمة أسأل الله حسنها

الخلاصة والتوصيات:

ركز هذا البحث على مرضي "الجهل والهوى" لكونهما سببين رئيسيين من أسباب التكفير، ولأن ما عداهما من الأسباب مهما تعددت وتنوعت فإنها في النهاية ترجع إلى هذين السببين الأساسيين، ومما يستدعي تجديد البحث فيهما، والتركيز عليهما، رغم تناولهما كثيراً من قبل الباحثين هو أنهما وإن كانا قديمين قدم الإنسان، فإن خطرهما وضررهما يتجدد بقدر ما يحدثه هذا الإنسان من فجور وعصيان، ولأن المعاصي والسيئات تتنوع وتتشعب وتزداد وتتمطط، فإن الحاجة إلى التذكير بشرهما وخطرهما تبقى قائمة بقاء هذا الإنسان الذي يكتوي بنارهما، ومهما بحثنا فرادى أو مجتمعين في شأنهما، فإننا لن نحيط بشرورهما ومهالكهما، نظراً لصعوبة التعامل معهما، فمهما تعلمنا وجاهدنا أنفسنا في تعلم الهدى، فسيبقى عندنا جهل بأمور كثيرة، ومنها سنؤتى، قال تعالى:"وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً"، ومهما جاهدنا انفسنا في محاربة الهوى، ونهيناها عن اتباعه، فإننا لن نستطيع أن نتخلص من كل دواعي الهوى، وكثير منها يعمل في خفاء شديد يصعب علينا اكتشافه، فما اكثر الشهوات الخفية، والحظوظ النفسية التي قد يزينها لنا الشيطان والنفس، أعاذنا الله جميعاً من مضلات الأهواء والفتن.

وفي محاولة لبيان ضرر الجهل والهوى على الناس، فإني عرفت بالجهل وبينت أهمية العلم، وتحدثت عن خطورة الجهل في أمهات المسائل الضرورية، وضربت أمثلة من تاريخ الأمة الإسلامية استشهدت بها على انتشار ظاهرة الجهل، ثم بينت علاقة الجهل بظاهرة التكفير، ثم فعلت مثل ذلك في الفصل الثاني المتعلق بالهوى.

التوصيات:

- الإكثار من المؤتمرات والندوات؛ لأنهما سبب في لقاء العلماء والدعاة والباحثين، لكي يتسنى لهم التشاور وتبادل الآراء في مثل هذه الأمور الخطيرة.
- التعامل مع ظاهرة التكفير بخطين متوازيين، الأول منهما علمي، يقوم به العلماء الربانيون، ودوره هو الحوار من أجل إزالة الشبه، وكشف الشبهات، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ ، وكما فعل عبد الله بن عباس مع الخوارج عندما حاورهم وناقشهم حتى رجع منهم عدد كبير.
- والخط الثاني: هو الخط الأمني الذي يعتمده رجال الأمن المخلصون، وهذا يكون مع من صم آذانه عن الاستماع العلماء، بحيث لا يسمح لمن لا يخالط العلماء ويحذر منهم ويلمزهم بمخالطة الناس ونشر أفكاره المسمومة بينهم، ويحذر العلماء منه بوصفه لا باسمه، لأن الصفات تعم أكثر زماناً ومكاناً.
- تبادل الخبرات العلمية والتجارب الفردية والجماعية التي تبذل في سبيل محاربة هذه الظاهرة.
- نزول العلماء والدعاة والباحثين إلى الأحياء الفقيرة والأسر المعوزة من أجل إنقاذهم من أمراض الجهل والفقر؛ لأن هذه الأماكن إذا لم يملأها العلماء ملأها غيرهم.
- إزالة بعض المنكرات والمظاهر المنتشرة في المجتمعات الإسلامية التي تصدم الأخلاق والفضيلة، وتخالف ما هو معلوم من الدين بالضرورة.
- تعاون أصحاب الأموال والمحسنين مع العلماء في قضاء حوائج الناس الذين يعيشون في أحوال يرثى لها.
- استغلال كل وسائل الإعلام لنشر الإسلام الصحيح والتدين الوسطي المعتدل البعيد عن الغلو والتطرف.

مصادر البحث

- الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية لابن بطة. تحقيق: رضا بن نعسان. دار الراية. الرياض. السعودية. ط١. ١٤٠٩هـ.
- أحكام القران لابن العربي. تحقيق: علي محمد البجاوي. دار المعرفة للطباعة والنشر.
- الأرجوزة المنبهة لأبي عمرو الداني. نسخة خطية.
- الاعتصام لأبي إسحاق الشاطبي، تعريف محمد رشيد رضا منشئ مجلة المنار، نشر دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت لبنان.
- إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم، تحقيق: محيى الدين عبد الحميد. دار الفكر –لبنان. ط٢، ١٩٧٧م.
- إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد، للمرتضى اليماني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- البداية والنهاية لابن كثير، دار الكتب العلمية. بيروت – لبنان، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٥–١٩٨٥.
- تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، طبعة دار الفكر، ١٩٩٤م.
- التحذير من الغلو في التكفير. حماد عبد الجليل البريدي. دار ابن الجوزي. القاهرة. ١٤٢٧هـ.
- تفسير القران العظيم لابن كثير، دار إحياء الكتب العربية، مطبعة الحلبي بمصر.
- تفسير المعوذتين لابن القيم الجوزية. دار الحديث.
- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لابن عبد البر، نشر وزارة الأوقاف.
- تيسير الكريم المنان، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي. مؤسسة الرسالة ط ٢، ١٤١٧هـ.
- جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، تحقيق أبي الأشبال. دار ابن الجوزي، الدمام. السعودية. ط١. ١٤١٤هـ.
- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي، تحقيق: محمود

الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.
- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن قيم الجوزية. دار الرشاد الحديثة – دار الكتب العلمية. بيروت. ١٩٨٧م. الطبعة الأولى.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصفهاني. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة، وشيء من فقهها وفوائدها، محمد ناصر الدين الألباني. المكتبة الإسلامية عمان– الدار السلفية الكويت.الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.
- السنة لابن أبي عاصم. تحقيق الألباني. المكتب الإسلامي. بيروت. لبنان. ط٣. ١٤١٣هـ.
- السنة لأبي بكر الخلال. تحقيق: د.عطية الزهراني، دار الراية– الرياض– الطبعة الثانية. ١٤١٥هـ ١٩٩٤م.
- سنن ابن ماجة. ترقيم: فؤاد عبد الباقي. المكتبة الإسلامية –استانبول –تركيا.
- سنن أبي داود. مراجعة: محيى الدين عبد الحميد، المكتبة الإسلامي– استانبول.
- سنن أبي داود، تحقيق: محيى الدين عبد الحميد، المكتبة الإسلامية، استانبول تركيا.
- سنن الترمذي بإشراف عزت عبيد الدعاس، المكتبة الإسلامية – استانبول– تركيا.
- سير أعلام النبلاء، للذهبي، تحقيق: جماعة من العلماء، إشراف: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/٤، ١٩٨٦م.
- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي، تحقيق: د/أحمد سعد حمدان. دار طيبة للنشر والتوزيع.
- شرح حلية طالب العلم للشيخ محمد صالح العثيمين.
- الشريعة للآجري، تحقيق محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، ط١، ١٣٦٩هـ، ١٩٥٠م.
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض. دار الفكر. بيروت. لبنان.
- صب العذاب على من سب الأصحاب لأبي المعالي محمود شكري الألوسي. (ت١٣٤٢–١٩٢٤). دراسة وتحقيق: عبدالله البخاري. مكتبة أضواء السلف. الطبعة الأولى ٢٠٠٤م.

- صحيح ابن ماجة للشيخ الألباني. إشراف: زهير الشاويش. مكتبة التربية العربي لدول الخليج– الرياض، الطبعة الثالثة: ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري. تحقيق الألباني. دار الصديق – الجبيل – السعودية.
- صحيح البخاري، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، استانبول– تركيا.
- صحيح مسلم، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، استانبول– تركيا.
- العلم فضله وشرفه، لابن القيم، مأخوذ من المفتاح. جمع علي حسن عبد الحميد. مكتبة الهداية. الدار البيضاء. المغرب.
- الكليات لأبي البقاء الكفوي، أعده للطبع: عدنان درويش، ومحمد المصري. مؤسسة الرسالة. ١٩٩٢م.
- لسان العرب، ابن منظور، مؤسسة الكتب الثقافية، دار صادر بيروت.
- المباحث العقدية في حديث افتراق الأمة. أحمد سردار. محمد ماهر الدين. طبعة الجامعة الإسلامية. ١٤٣٠هـ.
- مجموع الفتاوى لابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد.
- المستدرك على الصحيحين للحاكم، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، توزيع: مكتبة الباز، ط: دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي ودار صادر بيروت.
- مفتاح السعادة في موضوعات العلوم، لطاش كبري زاده، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- المفردات في غريب القرآن، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٣٨١هـ.
- الموافقات لأبي إسحاق الشاطبي. تحقيق: محمد بن عبدالقادر الفاضلي. صيدا بيروت. المكتبة العصرية. ١٤٢٣هـ.
- وجوب لزوم الجماعة وترك التفررق. جمال بادي. دار الوطن للنشر. ط ١. ١٤١٢هـ.